(١)
نشأة النديم ومصادر ثقافته

ولد عبد الله النديم بالإسكندرية فى عام ١٨٤٣ ونشأ فى أسرة كادحة حيث لعب الفقر دوره فى حياته الأولى، وتآزرت العوامل التى جعلته يشعر بآلام شعبه، فقد كان والده خبازا يصنع الخبز ويبيعه ويحصل من ذلك على مقدار الحاجة من العيش البسيط هو وأسرته. وتربى النديم فى مسكن متواضع فى حارة ضيقة من حوارى حى الجمرك القريب من ميناء الإسكندرية، وأرسله والده إلى كتاب الحى لتعلم مبادئ القراءة والكتابة، فظهر نبوغه حيث أعانته موهبته على سرعة الفهم والحفظ "فحفظ القرآن الكريم وأتمه قبل أن يبلغ التاسعة" ولما كانت أحوال والده المادية ضعيفة أحجم عن إرساله إلى الأزهر،

واستبدل بذلك إرساله إلى جامع قريب من منزله وهو الجامع الأنور فى عام ١٨٥٥ حيث درس "الفقه والأصول والتوحيد والمنطق والنحو والصرف وغيره"، وحضر دروس أكابر الشيوخ هناك ولكنه لم يصبر طويلا على الدراسة فى هذا الجامع حيث أحس بجفافها، وعقم الطريقة التى تدرس بها فضلا عن رداءة الكتب. كما وجد فى نفسه ميلا واستعدادا لشىء لا يستطيع منه خلاصا ولا عنه انصرافا، وهو الأدب فخرج من الجامع إلى الشارع أو إلى الحياة الواقعية فكانت بمثابة الجامعة التى تعلم منها كثيرا وشاهد فيها كثيرا، واغترف منها ما يشبع مزاجه وهوايته فى الأدب فأحاط بالحياة الشعبية، وسمع الأمثال والحكايات من شعراء الربابة ونوادر الظرفاء، كما ارتاد النديم المقاهى والمنتديات والمجالس الأدبية التى كانت تعقد فى بيوت الأثرياء، وفى جلسات التجار المحبين للأدب، يتطارحون الشعر، وغير ذلك من فنون الأدب. واستطاع النديم أن يتفوق على أقرانه وعلى أساتذته، واشتهر أمره، حيث برزت قدراته الخطابية والكتابية، وذاع صيته بالإسكندرية منشدا للشعر، ومدبجا للرسائل، وخطيبا فى المجالس، ولما علم والده بذلك وبإهمال ابنه للدراسة وانقطاعه عنها خيره بين الانتظام فى طلب العلم أو تخليه عنه، مع رفض الإنفاق عليه فاختار النديم الأمر الثانى مما اضطره إلى

البحث عما يسد به رمقه فترك الإسكندرية هائما فى قرى مصر ومدنها، تارة يجوبها سيرا على الأقدام، وأخرى يركب القطار.

تعلم النديم صناعة التلغراف، ولم يكن قد بلغ السابعة عشرة من عمره كى يكتسب رزقه، فالتحق بمركز التلغراف ببنها، ولما ظهرت كفاءته نقل إلى مكتب القصر العالى الذى كانت تقيم فيه الأميرة "خوشيار خانم" والدة الخديو إسماعيل فعرف النديم حياة القصور، واستطاع أن يقف على أسرار الخاصة وما بها من بذخ، وقارن بين ما شاهده من هذه الحياة، وحياة عامة الشعب وما بها من بؤس وشقاء وفقر مما كان له أكبر الأثر فيما بعد على كتاباته.

استقر النديم فى تلك الفترة بالقاهرة حيث تردد على المجالس التى كان يجتمع بها رجال الفكر وعشاق الأدب، وجالسهم وأخذ عنهم وشاركهم فيما هم فيه يتنافسون من صفوف الأدب، واستطاع أن يثقف نفسه ثقافة حرة غير مقيدة بمنهج دراسى أو غيره، إلا أن هذه الدراسة لم توضح له الرؤية السياسية التى يجب أن يسير عليها، ولم يتيسر له ذلك إلا بعد اتصاله بجمال الدين الأفغانى.